التفسير البياني جذور وامتداد

حاجي خولة طالبة دكتوراه جامعة العربي التبسي

الملخص:

تقف هذه الدراسة أوّلا على مفهوم التفسير البياني من خلال الحفر في المصطلح، ومحاولة فهمه انطلاقا من مفهوم المصطلحين اللذين يتركب منهما ألا وهما التفسير والبيان، ومن ثم استقراء دلالة المركب الاسنادي لهذين اللفظين وما يحمله من دلالات جديدة تساهم في إثراء الدرس البياني من جهة والتجديد التفسيري من جهة أخرى، ثم تنطلق الدراسة إلى تتبع تاريخ التفسير البياني بداية من جذوره الأولى التي تعود إلى ما قبل عصر التدوين؛ تلك الجذور التي أغفلتها جل الدراسات السابقة والتي حاولنا التركيز عليها في هذه الدراسة، ولا تقف الدراسة عند ذلك فحسب؛ بل تتعداه إلى تتبع امتداد التفسير البياني في العصر الحاضر، ودراسة تطوره على يد مجموعة من المفسرين البيانيين الذين أصّلوا مبادئ وخطوات هذا المنهج.

الكلمات المفتاحية :التفسير؛ البيان؛ القرآن؛ التأصيل

The summary:

In brief this research comes first to stand on the concept of the statement interpretation through digging in the term intrinsically with its content.

Then it proceed to follow the history of its first roots which goes back to pre-Era codification

Those roots that had been neglected by all previous studies. Moreover this research doesn't stop her but it over goes to track along the statement interpretation in present time studying its progression by some statement interpreters who had founded the principles and the steps of this curriculum

***keywords** :interpretation ;statement ;Koran;rooting.*

المقدمة:

يكاد يجمع المختصون في مجال التفسير، على أن ظهور التفسير البياني كان مرتبطا بظهور المصطلحات البلاغية والنقدية في صدر العصر العباسي[1]، وفاتهم أن قوم الفطرة في صدر الاسلام الأول، قد درسوا القرآن دراسة من يعرف مناحي البيان، وإن فاتتهم المواضعة المصطلحية؛ إذ عرفوا بفطرتهم وسليقتهم موضع الإيجاز والإطناب، والحقيقة والمجاز، وقد نقل عنهم في ذلك ما يصلح أن يعد اللبنة الأولى في التفسير البياني للقرآن الكريم.

وذلك ما يدفعنا إلى تلمّس الأصول الأولى والجذور البعيدة للتفسير البياني؛ لإعطاء كل ذي حق حقه، ولمعرفة فضل السبق في هذا الاتجاه التفسيري الذي يعد أهم الاتجاهات التفسيرية؛ لأنه يعنى بالبيان القرآني المعجز الذي شمل القرآن بأكمله، وكان موطن التحدي للعرب الفصحاء الذين وقفوا أمامه عاجزين ومنبهرين بنظمه الفريد، وأسلوبه البديع المخالف لأساليبهم التي ألفوها في خطبهم وأشعارهم، فماذا نقصد بالتفسير البياني؟ وما هي حدوده الفاصلة بين النظرية والتطبيق؟ وهل هناك اتفاق في توحيد معناه؟ وإن كان فما هي جذوره؟ وما هي امتداداته في عصرنا الحاضر؟ وهل نضج واحترق أم أنه لا يزال يستدعي من ينضجه مستقبلا؟ تلكم هي إشكالية هذا البحث، والتي سنحاول الإجابة عنها بالاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي، من أجل الوصول إلى وصف هادف ومنظم.

أولا- التفسير البياني

إن الحديث عن التفسير البياني أمر شائق وشائك في الوقت نفسه، شائق؛ لأنه يهتم بجمال التعبير ودقّته، ويبيّن ما في الآيات من معانٍ ولطائفَ بيانية رائعة لا يستطيع المفسر التقليدي – بالشرح- تناولها، وذلك لأن التفسير البياني غنيّ بالمعطيات التي يستطيع المفسر النظر فيها، ومحاولة فهمها وإبداء رأيه من خلال تعليلاته؛ لسبب الاختلاف بين الصيغ والتراكيب أو دلالة الألفاظ وغيرها من الأمور التي يهتم بها المفسر البياني، فنجده يتتبع المواضع المتشابهة ويحاول فهم

_مثل الذي ذهب إليه الدكتور حفني محمد شرف أثناء محاولة التأريخ للتفسير البياني في

[1] كتابه : إعجاز القرآن البياني بين النظرية و التطبيق

القرآن كبنية واحدة، ولا يدرس الآية كبنية معزولة عن باقي الآيات والسور، وذلك؛ ليحيط باللفظة أو بالآية من كل أطرافها ومواضع ورودها، ومعانيها المختلفة في كل موضع للكشف عن المعنى الكلي أو المعنى المقصود.

غير أنه من الصعوبة بمكان الإمساك بالمعنى الكلي، أو المعنى الحقيقي المقصود، وهذا الذي يجعل من التفسير البياني أمرا شائكا كما تقدمنا، فالمصطلح القرآني من وضع الخالق سبحانه وتعالى؛ لذلك يظل فهم الإنسان له نسبيا مهما حاول التدقيق والتعليل وشائك أيضا؛ لأنه متداخل بين التفسير والبيان، وفي كليهما أبواب عريضة يصعب حصرها، وذلك؛ لأن مصطلح البيان كلفظ وكعلم قائم بذاته رهين الجدل والاختلاف، من حيث معناه وأقسامه ومجالاته، ومردّ ذلك إلى أن معظم المفسرين الذين خاضوا في هذا العلم لم يحددوا تعريفا له، وخلت كتبهم النظرية من الخوض في مفهومه وخطواته وقضاياه، إلا بعض المبادئ التي وضعها أمين الخولي في كتابه (التفسير معالم حياته، منهجه اليوم) ولكنها تبقى محاولات نظرية جزئية بعيدة عن التطبيق الكلي والهدف الأساسي، كما سنوضح ذلك في اللاحق من هذه الدراسة في موضعه الخاص بالتفسير البياني عند المحدثين.

1- مفهوم التفسير لغة واصطلاحا

1.1_ لغة : مأخوذ من الفسر بمعنى البيان والكشف ،ومنه قوله تعالى: ﴿ولا ياتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا﴾[الفرقان:33]

والتفسير في اللغة مصدر على وزن "**تفعيل**"، والفعل الماضي من التفسير هو الرباعي "**فسّر**"، يقال:فسّر الشيء تفسيرا ،والجذر الثلاثي للكلمة هو الفسر، قال الإمام أحمد بن فارس عن الفسر" الفسر كلمة تدل على بيان الشيء وإيضاحه.[2]

وقال **ابن منظور في لسان العرب** عن الفسر: البيان،فسّر الشيء يفسّره بالكسر ،ويفسره بالضم،فسرا، وفسّره:أبانه ،والتفسير مثله. والفسر كشف المغطى، والتفسرة :البول الذي يستدل به على المرض،حيث ينظر فيه الأطباء فيستدلون به

---

[2] _ منصور كافي: مناهج المفسرين في العصر الحديث بين النظرية والتطبيق، دار العلوم ،الجزائر،ط1،2006،ص15.

على علة المريض،وكل شيء يعرف به تفسير الشيء ومعناه فهو تفسرته، والتفسير :البيان، وهو كشف المراد عن اللفظ المشكل"[3]

ومن الواضح أن معظم المفاهيم اللغوية تدل على أن التفسير مشتق من مادة "**فسر**" وهي بمعنى البيان والإيضاح والكشف، وإزالة الإشكال، ولكن نجد أن هناك رأيا آخر لدى بعض علماء اللغة يقول بأن التفسير: مقلوب من "سفر "ومعناه أيضا: الكشف، يقال: سفرت المرأة سفوراً إذا ألقت خمارها عن وجهها وهي سافرة، وأسفر الصبح: أضاء، وإنما بنوا "فسر" على التفعيل فقالوا "تفسير" للتكثير[4].

وقال **الراغب الأصبهاني**: "(الفسر) و(السفر) يتقارب معناهما كتقارب لفظيهما لكن جعل "الفسر" لإظهار المعنى المعقول...وجعل" السفر" لإبراز الأعيان للأبصار، فقيل:سفرت المرأة عن وجهها وأسفر الصبح"[5]

ومن خلال ما سبق يتبين أن التفسير مشتق من الفسر، والاشتقاق الأصغر من هذه المادة "الفسر" يدل على معناها الأصلي وهو البيان والتوضيح والكشف والإظهار، وكذا الاشتقاق الأكبر لمادة فسر يدل على الظهور والإيضاح والبيان مع اختلاف طفيف في اللفظ والمعنى.

2.1- اصطلاحاً:

لقد صار التفسير علما يطلق على معاني القرآن، ويختص بشرحه وايراد معانيه، وتوضيح مبهمه.

يعرف **أبو حيان التوحيدي** التفسير بقوله " علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الإفرادية والتركيبية ، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، و تتمات ذلك"[6]

_ أبي الفضل جمال الدين محمد مكرم ابن منظور : لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1 [3] (د،س) ،ج5، ص55،...

_ فهد عبد الرحمان بن سليمان الرومي: بحوث في أصول التفسير ومناهجه، مكتبة التوبة، [4] الرياض، ط1419،4هـ، ص7.

[5] _ فهد عبد الرحمان بن سليمان الرومي: بحوث في أصول التفسير ومناهجه، ص 7.

[6] _ منصور كافي: مناهج المفسرين في العصر الحديث،ص17

ويعرفه **محمد الطاهر بن عاشور** بقوله :"اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسع....وموضوع التفسير:ألفاظ القرآن من حيث البحث عن معانيه، وما يستنبط منه".[7]

ومن خلال **التعريفين السابقين** يمكن **القول** بأن التفسير هو: "علم يعنى بالبحث عن فهم كتاب الله المنزّل على رسوله ﷺ، وبيان معانيه، وتوضيح ألفاظه واستخراج أحكامه بقدر الطاقة البشرية التي تتطور بتطور الفهم، واستخدام الوسائل المساعدة لإدراك المعنى المقصود".

2- مفهوم البيان لغة واصطلاحا

1.2_ لغة: ورد في لسان العرب بمعنى: التوضيح والإظهار، ومما جاء فيه" البيان ما يبين به الشيء من الدلالة وغيرها، وبان الشيء بيانا: اتضح فهو بيّن، والجمع أبيناء، مثل: هيّن أهيناء،...واستبان الشيء: ظهر، واستبنته أنا: عرفته " [8]

وأيضا "والبيان: الفصاحة واللسن. وكلام بيّن: فصيح. والبيان: الافصاح مع ذكاء. والبيّن من الرجال: الفصيح".[9]

2.2_ اصطلاحاً: يعرف البيان في الاصطلاح بأنه "أصول يعرف بها ايراد المعنى الواحد بطرق يختلف بعضها عن بعض، في وضوح الدلالة العقلية على ذلك المعنى"[10]

وهو ما ذهب إليه **القزويني** في قوله "علم يعرف به ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه"[11] ومعنى هذا أنه يشمل الدلالة على المعنى أي التوضيح، وتعدد الطرق لذلك.

---

[7] _ محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير،الدار التونسية للنشر،تونس(د،ط)،1984،ج1،ص11

[8] _ ابن منظور:لسان العرب،ج2،ص 198

[9] _ المصدر نفسه،ص199

[10] _ أحمد الهاشمي:تع:سليمان صالح، جواهر البلاغة،دار المعرفة،بيروت،ط2،2007،ص244،245

وأما الجاحظ الذي يعتبر أول من وضع أسس هذا العلم فيرى أنّه "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القارئ والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت المعنى فذاك هو البيان في ذلك الموضع"[12]

وهذا هو المعنى الشامل للبيان، والذي خرج به المحدثون عن تقسيمات البلاغة وتقييدها، ليشمل بذلك التفسير البياني كل ما يدل على المعنى بطرق متعددة.

3- مصطلح التفسير البياني:

لم يضع المفسرون البيانيون تعريفاً واضحاً للتفسير البياني كما سبق، وقد قادنا الاجتهاد إلى تعريفين، عسى بالجمع بينهما يتضح معناه. وأمّا الأول فقد ورد عن **فاضل صالح السامرائي** في قوله "هو التفسير الذي يبين أسرار التركيب في التعبير القرآني. فهو جزء من التفسير العام تنصب فيه العناية على بيان أسرار التعبير من الناحية الفنية كالتقديم والتأخير والذكر والحذف واختيار لفظة على أخرى وما إلى ذلك مما يتعلق بأحوال التعبير"[13] والثاني ما جاء على لسان فهد بن عبد الرحمان بن سليمان الرومي صاحب كتاب (بحوث في أصول التفسير و مناهجه) نقلا عن أبي سليمان الخطابي في كتابه(بيان اعجاز القرآن) حيث قال:"وخلاصة الأمر أن هذا البيان القرآني يجمع أمورا جملتها النظم الفريد العجيب الحسن المخالف لأساليب

---

[11] _ جلال الدين محمد بن عبد الرحمان القزويني الخطيب:ضبط وشرح:عبد الرحمان البرقوقي ، التلخيص في علوم البلاغة، دار الفكر العربي ،ط1، 1904 ،ص235 ،236

[12] _ عمرو بن بحر الجاحظ :تح:عبد السلام محمد هارون ،البيان والتبيين،مكتبة الخانجي للنشر،القاهرة، ط7 ،1998،الكتاب الثاني،ج1،ص 76ص 54

[13] _فاضل صالح السامرائي:على طريق التفسير البياني جامعة الشارقة،الشارقة،(د،ط)،2002،،ج1، ص7

العرب، والصور البيانية التي تؤلف أبدع تأليف بين أفصح الألفاظ الجزلة وأصح المعاني الحسنة".[14]

واعتمادا على ما سبق، نخلص بالقول أنّ التفسير البياني هو التفسير الذي يعنى بأسرار التعبير القرآني والنظم الفريد من ناحية عنايته بالتقديم والتأخير، والذكر والحذف، والمختلف والمتشابه وغير ذلك، ويعنى بالألفاظ الجزلة والمعاني الحسنة من ناحية اهتمامه بالصور البيانية. فاتجهت همة طائفة من المفسرين إلى هذه الوجوه البيانية و أولوها عنايتهم واتسعت الدراسات حولها، وقد ظهر هذا اللون من التفسير في تفسير الرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم.

ثانيا– التفسير البياني عند القدماء:

1– التأصيل للتفسير البياني:

تعود الجذور الأولى للتفسير البياني إلى صدر الإسلام حيث يعتبر **الرسول ﷺ** أول من فسّر القرآن ووضّحه لقومه امتثالا لقول الله عز وجل: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزل إليهم**﴾**[النحل: 44]** ونجد في تفسيره جملة من التلميحات البيانية نذكر منها تفسيره لقوله تعالى﴿ **وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الابيض من الخيط الأسود من الفجر**﴾**[البقرة:187]** ببياض الليل وسواد النهار منتقلا في ذلك من المعنى الحقيقي إلى المعنى المجازي.[15].

كما ظهرت بذور التفسير البياني في تفاسير الصحابة رضوان الله عليهم ومن أشهرهم تفسير بن عباس رضي الله عنهما إذ اشتهر بالتفسير اللغوي لكتاب الله الذي يرجع فيه الى تراث العرب وأشعارهم.

و نضرب مثالا لتفسير ابن عباس في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿**أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل و أعناب له فيها من كل الثمرات و أصابه الكبر و له ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات**

---

[14] _ فهد عبد الرحمان بن سليمان الرومي :بحوث في أصول التفسير و مناهجه،ص 106

[15] _ محمد رجب البيومي :خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم ، الشركة المصرية للطباعة و النشر،القاهرة، ط1 ، 1971 ،السنة الثالثة،الكتاب الثاني والأربعون، ص 11 ، 12

لعلكم تتفكّرون﴾[سورة البقرة: 266]، حيث أجاد في بيان المقصود التمثيلي من الآية، ففسرها بأن الله عز وجل قال أيود أحدكم أن يعمل بعمل أهل الخير وأهل السعادة، حتى إذا كان أحوج ما يكون إلى أن يختمه بخير حين فني عمره واقترب أجله ختم ذلك بعمل من عمل أهل الشقاء فأفسده كله. [16]

وإذا كان ابن عباس قد زرع بذرة التفسير البياني فقد سقاها تلامذته ونحوا نحوه، فتجد أن ملامح هذا النوع من التفسير غالبة على تفاسيرهم من أبرزهم (مجاهد، عكرمة، طاووس، ابن جبير، بن أبي رباح، وغيرهم).

2- التفسير البياني في عصر التدوين :

أول ما يصادفنا في هذا العصر **(أبو عبيدة)** الذي وضع اللبنة الأولى في صرح الدراسات البلاغية للقرآن الكريم، وذلك في كتابه (مجاز القرآن) الذي تعرّض فيه للنصوص القرآنية، وما تدل عليه من حقيقة ومثل وتشبيه وكناية وما تتضمن من ذكر وحذف أو تقديم و تأخير، ولم يكن يقصد بالمجاز حينئذ ما هو قسيم الحقيقة وإنما عنى بمجاز الآية وما يعبر به عن الآية[17].

وخاض بعده عدد من المؤلفين في هذا المجال ، فألف **الفرّاء** (ت 207 هـ) كتابه (معاني القرآن) وقد خاض مثل ما خاض فيه أبو عبيدة من ألوان العربية، واللمسات البيانية، إلا أنه غلّب النحو في منهجه التفسيري، وتوسع في توجيه القراءات.

و جاء بعدهم **الجاحظ** (ت225هـ) فكتب(نظم القرآن) وهو كتاب مفقود لكن الجاحظ نفسه، وغيره من الدارسين أشاروا في كتبهم إلى قيمة هذا الكتاب ولطائفه البيانية، كما كتب (الحيوان) و (البيان والتبيين) اللذان اشتملا على كثير من الإشارات البلاغية في القرآن. ومع أن الجاحظ لم يترك لنا كتابا مستقلا بالتفسير،

---

[16] _ جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ابن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت،(د،ط) ، 1978،ج3، ص 47

[17] _ فهد بن عبد الرحمان بن سليمان الرومي : اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، ،مؤسسة الرسالة، بيروت ،ط3 ،1997 ،ج1 ،،ص 971

إلا أنه يعد رجلَ التفسير البياني الأوّل؛ بوقوفه على كثير من آيات القرآن بالدراسة و الشرح و التحليل.

ثمّ يأتي **ابن قتيبة** (ت 276 ه) المشهور بكتابه (مشكل القرآن) الذي ردّ فيه على الطاعنين في بلاغة القرآن.

أما في القرن الرابع الهجري فقد اختار أغلب أصحابه لهذا اللون من التفسير عنوان: (إعجاز القرآن) فألّفت فيه العديد من الكتب من بينها كتاب (النكت في إعجاز القرآن) **للرماني**(ت384ه) و (بيان إعجاز القرآن) **للخطابي**(ت386ه) وكتاب(إعجاز القرآن) **للباقلاني** (ت403ه) وكتاب (المغني في أبواب التوحيد و العدل) **للقاضي عبد الجبار**(ت415ه) و الذي خصّ إعجاز القرآن بجزء مستقل.

و من أشهر من اهتم بهذا اللون من التفسير في القرن الخامس الهجري **عبد القاهر الجرجاني**(ت 471 ه)بعد أن ألّف كتاب(دلائل الإعجاز) و (أسرار البلاغة) و رسالته التي أسماها: الرسالة الشافية في إعجاز القرآن الكريم.[18] "

و في القرن السادس اشتهر **الزمخشري** (ت538) الذي ألّف (تفسير الكشاف) حيث طبّق فيه صاحبه نظرية النظم التي أرسى قواعدها الجرجاني فكان تفسيرا لغويا بيانيا تطبيقيا بامتياز حتى وإن تخللته بعض أفكار الاعتزال التي انتصر لها صاحبها في تفسيره.[19]

وفي نهاية القرن نفسه ألّف **فخر الدين الرازي** (ت606ه) رسالته (نهاية الايجاز في دراية الاعجاز) وفي القرن السابع ألف أبو الإصبع كتابيه: (بديع القرآن) و(الخواطر السوائح في أسرار الفواتح) وفي القرن الثامن وضع الامام **يحي بن حمزة العلوي** (ت 749ه) كتابه (الطراز) الذي أملاه على أصحابه بناء على طلبهم، وذلك بعد أن قرأوا تفسير الكشاف.

---

[18] _ المرجع نفسه ، ص 972، وانظر محمد رجب البيومي:خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم ،ص 121، 122

[19] _سامي محمد هشام حريز: نظرات من الاعجاز البياني في القرآن الكريم نظريا و تطبيقا، دار الشروق، عمان، ط1 ،2006 ، ص 61

أما القرن التاسع فقد عرف بكتاب(نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) لصاحبه **برهان الدين بن عمر البقاعي** (ت 885هـ) وتبعه **السيوطي**(ت911هـ) في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر فألف كتاباً على منواله سمّاه (تناسق الدرر في تناسب السور).

ولم يصلنا كتاب في هذا اللون من التفسير يعود للقرن الحادي عشر أو القرن الثاني عشر، أما عن القرن الثالث عشر فقد ألف فيه **الألوسي** (ت1217) تفسيره (روح المعاني) حيث اهتم فيه بالمسائل البلاغية و النحوية حتى عدّه بعض المعاصرين امتدادا لتفسير الزمخشري.[20]

هذه رحلة سريعة عبر القرون وإن كانت لا تستوفي هذا التفسير حقه، فهي إشارات إلى وجود جذور تاريخية للتفسير البياني للقرآن الكريم عند الأقدمين.

ثالثا– التفسير البياني عند المحدثين:

كان انتهاء القرن الثالث عشر مؤذنا بانحدار العلوم العربية والدراسات الاسلامية، فاختفت لوامع الابتكار وساد الترديد والتقليد و كذا الجدل حول المسائل التي خلّفها التراث، فأصاب كلّا من البلاغة والتفسير، نوع من الهبوط الفكري، تبعهما هبوط مماثل أصاب التفسير البياني– إذ هو نتيجة متوقعة لكل ما يجِدُّ في حقل التفسير والبلاغة من أوضاع– فقد تاه العالم الاسلامي في ظلمات تتكاثف فلا تدع للنور طريقا.

هذه الظلمات التي طمست معالم الإسلام وسلبت أهل القرآن روح الحياة بعد أن كانوا حماة الفكر، وقادة التقدم وأهل الابتكار، فتملّكهم الجمود الفكري فأصبحوا أسرى الأوهام ومرتع الاستعمار.

1_ بوادر التفسير البياني عند محمد عبده:

بعد الجمود الفكري الذي أصاب العالم الاسلامي تلك الفترة نتيجة الحروب والاستعمار نهض **محمد عبده**(1266 هـ – 1323 هـ) في مطلع القرن الرابع عشر

---

[20] _ حفني محمد شرف:إعجاز القرآن البياني بين النظرية و التطبيق،المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، مصر(د،ط) 1390هـ،الكتاب الرابع ،ص303

بتفسير القرآن لا ليضم نسخة جديدة تتشابه مع تفاسير من سبقوه بل؛ ليجعله صيحة البعث، فكان صاحب دعوة إسلامية تنبه الغافلين وتهدي الحائرين، فكانت دروسه القرآنية دائرة معارف تلبي حاجة اللغوي والفقيه ورجل الاجتماع وكل طالب للعلم ملتمسا للحقيقة، وهي ليست مجال بحثنا؛ بل ما يهمنا هو كيف فسر محمد عبده القرآن تفسيرا يعيد السامعين إلى عهود البلاغة العريقة. فعلى الرغم أنه لم يترك لنا كتابا شاملا للتفسير البياني، إلا أننا عندما نقرأ ما بقي لدينا من تفسير الرجل نجد أنه قد وضع حجر الأساس في نهوض التفسير البياني في العصر الحديث؛ وذلك حين حدد لتلاميذه الشروط التي يجب على المفسر التزامها، والمتمثلة باختصار في :

1 – فهم حقائق الألفاظ التي أودعها القرآن وتتبع الاصطلاحات التي حدثت في الملة ليفرق بينها وبين ما ورد في الكتاب، ومن ثم يحث على تفسير القرآن بالقرآن نفسه؛ وذلك بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه و ينظر فيه، وينظر كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية، فيعرف المعنى المطلوب بين معانيه.

2 – يجب أن يكون محيطا بعلم الأسلوب والاعراب متقنا لعلمي المعاني والبيان.

3 – علم أحوال البشر.

4 – العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن، يجب على المفسر أن يعلم ما كان عليه الناس في عصر النبوة من العرب وغيرهم و كيف كان هذا القرآن سببا في هدايتهم.

5 – العلم بسيرة النبي ﷺ وأصحابه و ما كانوا عليه من علم و عمل و تصرف في الشؤون دنيويها و أخرويها.[21]

هذه أهم النقاط التي ركز عليها الشيخ محمد عبده في تفسيره، والتي تدل على علمه وذكائه في تركيزه على الفوائد التي تحتاج لها حالة العصر ، وكذا اهتمامه بالجانب البياني اهتماما يدل على سعة اطلاعه بالبلاغة و أسرارها "إذ لم يعد الشرح

[21] _ محمد رشيد رضا: تفسير المنار ،دار المعرفة ،بيروت ، ط2،(د،ت)، الجزء1 ،ص 21، 24

البلاغي لديه يدور في أكثر مناحيه حول تحديد التشبيه والاستعارة والكناية في دائرة البيان أو يتقيد في أكثر أموره بمصطلحات الفصل والوصل و الخبر والانشاء في دائرة الأسلوب الأدبي الواضح بأسراره السافرة، بحيث تطالعك روح البلاغة وجوهرها مطالعة تشبعك وترضيك"[22]

و هذا هو المفهوم الواسع للتفسير البياني الذي ظهر عند مفسري العصر الحديث، حيث خرجوا من الدائرة المغلقة التي سار عليها القدماء باتّباعهم السكّاكي في تقسيمه للبلاغة إلى علم المعاني والبيان والبديع، ومن ثمّ تقسيمهم علم البيان إلى التشبيه والاستعارة والكناية والمجاز دون أن يولوا اهتماما أكثر بمفهوم البيان الشامل لجميع أسرار التعبير القرآني ونظمه الفريد ودقّة اختيار ألفاظه، ومن ثم ترتيب الجمل والآيات في السورة.

وعلى الرغم من أن **محمد عبده** لم يترك لنا تفسيرا مستقلا يُعنى بالتفسير البياني إلّا أن تفسيره لجزء عم وكذا ما ورد في تفسير المنار يجعلنا ندرك ما لهذا الرجل من حس فني بلاغي في رسم الصور وانتقاء الكلمات وتآلف السياق، فضلا عن قوّته العقلية ونظرته الأدبية اللتان تدفعانه إلى إيراد آراء حيّة في الأسلوب البياني للقرآن الكريم، ومن أمثلة ذلك تفسيره لقوله تعالى ﴿ **والفجر و ليال عشر**﴾**[الفجر: 1-2]** بأن الفجر هاهنا "هو جنس ذلك الوقت المعروف الذي يظهر فيه بياض النهار في جلد الليل الأسود، وينبعث الضياء لمطاردة الظلام، وهو وقت تنفس الصبح، وهو معهود في كل يوم، فصحّ أن يعرّف بالألف واللام، والمراد – والله أعلم – من ليال عشر، ليال يتشابه حالها مع حال الفجر، وهي ما يكون ضوء القمر فيها مطارد لظلام الليل إلى أن تغلبه الظلمة، فكأنه وضع التناسب على شيء من التقابل، فضوء الصبح يهزم ظلمة الليل ثم يسطع النهار ولا يزال الضوء إلى الليل، وضوء

[22] _محمد رجب البيومي: خطوات التفسير البياني، ص297-298

الأهلة في عشر ليال من أول كل شهر يشق الظلام، ثم لا يزال الظلام يغالبه إلى أن يغلبه فيسدل على الكون حجبه"[23] .

و الأمثلة كثيرة على تفسيره البياني ولكن المقام هنا لا يستدعي التفصيل بقدر ما يستدعي انتقاء بعض الأمثلة البيانية التي تدل على أن **محمد عبده** كان فعلا من أهل التفسير البياني وروّاده حتى إن غلب على تفسيره الطابع الإصلاحي الاجتماعي والنّفسي، وقد تبعه في ذلك تلاميذه ونهجوا نهجه في التفسير البياني و من بينهم: الشيخ محمد مصطفى المراغي، وعبد القادر المغربي، وإبراهيم الجبالي، ومحمد رشيد رضا [24].

2_ أمين الخولي و دوره في تأصيل المنهج البياني في التفسير:

لم يدرس السابقون البيان القرآني كغاية في حد ذاته؛ لذلك لم ترد في مؤلفاتهم محاولة لتأصيل للمنهج البياني في التفسير وتحديد معالمه، وإنما تناول كل منها جانبا أو جوانب معدودة، فقد كانوا فقط يلتقطون شواهد منه على قواعدهم البلاغية والنحوية ولم يحاولوا التأصيل لمنهج وخطوات يسير وفقها المفسر للوصول إلى تفسير شامل وكاشف لأسرار البيان والتعبير في القرآن الكريم، وهذا الذي حاول أن ينهض به أمين الخولي(1313 هـ–1385هـ) في القرن الرابع عشر هجري، وبالتحديد في كتابه التفسير معالم حياته ،منهجه اليوم)،حين حاول وضع منهج له خطوات يسير وفقها المفسر للوصول إلى التفسير البياني، وهذه الخطوات نذكرها باختصار كما يلي:

– أن يجمع المفسر الآيات ذات الموضوع الواحد بعضها إلى بعض ويتدبرها جميعا ويفسرها.

---

[23] _ تفسير القرآن الكريم – جزء عم – : محمد عبده ،دار الكتب، الجزائر،(د،ط)،(د،ت)، ص 80

[24] _هو صاحب تفسير المنار الذي جمع فيه دروس و محاضرات أستاذه محمد عبده حيث كان هذا الأخير رافضا لفكرة كتابة تفسير للقرآن الكريم لأن الكتب في نظره لا تفيد القلوب العمي، و إنما الكلام المسموع هو الذي يؤثر فيهم ، و لكن محمد رشيد رضا أقنعه أخيرا فأجازه ليكتب دروسه التي ألقاها في الأزهر

– أن يرتب آيات الموضوع الواحد ترتيبا زمنيا حسب تاريخ نزولها.

– أن يدرس ما حول النص دراسة خاصّة كتاريخه و أسباب نزوله وجمعه وكتابته وقراءته ونحو ذلك من علوم القرآن.

– أن يقدّم دراسة عامة للبيئة التي نزل بها هذا النص ؛البيئة المادية المتمثلة في الأرض والسماء والجبال و السهول والأودية، و البيئة المعنوية المتمثلة في تاريخ هذه الأمة وأعرافها وعاداتها وتقاليدها.

– دراسة النص القرآني في مفرداته ؛وذلك بدراسة استعمالات هذه المفردة لغويا ،و دراسة استعمالاتها في القرآن الكريم في مواضع مختلفة مع بيان مدلولها في كل موضع.

– دراسة النص القرآني في معانيه المركبة، وذلك بطريق العلوم الأدبية من نحو وصرف وبلاغة.[25]

تلكم هي أبرز النقاط التي رسمها أمين الخولي للتفسير البياني، والتي سارت وفقها تلميذته وزوجته عائشة عبد الرحمان _ المعروفة بعائشة بنت الشاطئ_ (1913–1998 م) فقد ظهر تأثرها به واضحا جليا في كتاباتها التي نذكر منها:التفسير البياني للقرآن الكريم ، الإعجاز البياني ومسائل ابن الازرق ، القرآن والتفسير العصري، وكذا في بحوثها المنشورة: كتابنا الأكبر، من أسرار العربية في البيان العربي .

3_التفسير البياني عند السامرائي:

ويبرز في عصرنا الراهن مفسر بياني مختص في النحو والتعبير القرآني ألا وهو فاضل صالح السامرائي أطال الله في عمره، الذي قدم دراسات تطبيقية في التفسير البياني وذلك لطلاب الدراسات العليا في المعاهد والكليات، ولم تقتصر جهوده على تلك المحاضرات التي كان يلقيها على طلابه بل ذاع صيته في العالم الاسلامي بعد أن ألقى دروسه في حصة لمسات بيانية في قناة الشارقة الإماراتية.

[25]- أمين الخولي :التفسير معالم حياته، منهجه اليوم ،دار الكتاب اللبناني،ط1982،1،ص35-44

وقد ألّف السامرائي مجموعة معتبره من الكتب في التفسير البياني بالرغم أنه خاض هذا المجال في سن متأخرة؛ وذلك بعد أربعين سنة من تدريسه لمادة النحو[26] ، ونذكر منها على سبيل المثال: قبسات من البيان ، التعبير القرآني ، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، أسئلة بيانية في جزأين، على طريق التفسير البياني في ثلاث أجزاء، لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، وغيرها من الكتب التي اختصت بممارسة التفسير البياني لا مجرد التنظير له أو إعادة ما جاء في كتب القدماء، فقد كان تفسيره محاولة لتجديد المنهج البياني في التفسير، وإعطاء تعليلاته الخاصة و إضافاته على المسائل التي لم تقنعه في تفاسير السابقين.

و من خلال تعريفه للتفسير البياني ووضعه لشروط المتصدي للتفسير البياني يتبين لنا توجّهه وأهم النقاط التي ركز عليها في تفسيره.

تعريف التفسير البياني من وجهة نظر السامرائي: "هو التفسير الذي يبين أسرار التركيب في التعبير القرآني، فهو جزء من التفسير العام تنصب فيه العناية على بيان أسرار التعبير من الناحية الفنية كالتقديم و التأخير و الذكر و الحذف واختيار لفظة على أخرى و ما إلى ذلك مما يتعلق بأحوال التعبير".[27]

و قد كانت هذه النقاط التي ذكرها في تعريفه هي الأساس الذي ركّز عليه في كتبه فكان تفسيره جامعا بين اهتمامه بالمواضيع: التقديم والتأخير والذكر والحذف والاختلاف والتشابه من جهة، وبين إبراز النواحي البيانية لبعض الآيات القرآنية أو السور القصار من ناحية أخرى.

شروط المتصدي للتفسير البياني:[28]

- التبحر في علوم اللغة و التصريف و النحو و البلاغة.
- العلم بالقراءات.

---

[26] _ بهجت عبد الغفور الحديثي: القصيدة الاسلامية و شعراؤها المعاصرون في العراق،المكتب الجامعي الحديث،الاسكندرية،ط1 ،2003،ص300

[27] _ فاضل صالح السامرائي :على طريق التفسير البياني،الجزء 1، ص7

[28] _ المرجع نفسه، ص 7-14

– العلم بأسباب النزول.

– النظر في السياق.

– مراجعة الموطن القرآنية التي وردت فيها المفردة التي يراد تفسيرها .

– مراجعة المواطن القرآنية التي ورد فيها أمثال التعبير الذي يراد تبيينه ليتخلص المعنى المقصود.

– أن يعلم أن هناك خصوصيات في الاستعمال القرآني كاستعمال الريح للشر و الرياح للخير و الغيث للخير و المطر للشر و غير ذلك.

– أن ينظر في الوقف و الابتداء و أثر ذلك في الدلالة و التوسع في المعنى أو التقييد فيه و ما إلى ذلك

– أن يسترعي نظره أي تغيير في المفردة و العبارة و لو كان فيما يبدو له غير ذي بال فإنه ذو بال ، فإن وجد له تعليلا فذلك و إلا سيأتي من ييسر الله له تعليله و تفسيره.

_ إدامة التفكر و التدبر و هما من أهم ما يفتح على الانسان من أسرار و يهديه إلى معان جديدة .

– أن يكون قد اطلع على جملة صالحة مما كتبه من تقدمة من مشاهير المفسرين و نظر في كتب علوم القرآن و كتب الإعجاز و كتب المتشابه و تناسب الآيات و السور و ما إلى ذلك مما كتب في أسرار التعبير القرآني فإن فيها أسرار بيانية و فنية بالغة الرفعة

– الموهبة: و هي أساس كل علم و فن و صنعة ، فبقدر ما أوتي الفرد من موهبة يكون شأنه في العلم و الفن، على ألا يعتمد على الموهبة وحدها بل عليه أن ينميها و يصقلها بكثرة الاطلاع والنظر والتدقيق والتأمل.

هذه أهم النقاط التي ذكرها فاضل صالح السامرائي والتي تعد خطوات رائدة في مجال التفسير البياني يجب على المفسر التحلي بها، و لم يقتصر على هذه الشروط؛ بل إن القارئ في مقدمات وثنايا مؤلفاته يجد من القواعد البيانية والخطوات الأساسية التي تؤصل للتفسير البياني الشيء الكثير، فقد اجتهد في إثراء التفسير البياني بدراساته التطبيقية والمستجدّة و بذلك خدم التفسير البياني بتطبيق جزء معتبر

من منهج أمين الخولي و إثرائه بتعليلاته و آرائه و قواعده و خرج بالمنهج البياني من التنظير إلى التطبيق، ومن التكرار إلى التجديد، ومن التفرّق إلى الشمول وذلك بإفراده لكتب خاصة ومستقلة في التفسير البياني الذي كان يُدرس فقط في ثنايا كتب الإعجاز والبلاغة وعلوم القرآن، وهذا فضل كبير نشهد له به.

الخاتمة:

هذه لمحة موجزة عن تاريخ التفسير البياني من جذوره الأولى إلى امتداده في العصر الراهن، فالتفسير البياني لم ينهض من العدم ، وما هي إلا لبنات ترص بعضها بجوار بعض و تتبلور وتنضح بالانتقال من عالم إلى عالم آخر لتشكل لنا في النهاية البنيان الذي نصبوا إليه، والذي لم يكتمل بعد حتى هذه الساعة ، لأن البيان القرآني شامل لكل آية بل لكن حرف من حروف الكتاب الكريم كيف لا و هو موطن الإعجاز و التحدي ، و مهما بلغت جهود العرب في محاولة تفسيره ستبقى جهود آنية ، و سيبقى القرآن الكريم مفتوحا للنظر لمن سيأتي في المستقبل و يكمل هذا المسار، ولكن هذا لا يمنع الدارسين من مضاعفة الجهود و محاولة النهوض بتفسير بياني شامل للقرآن الكريم يتجاوز به صاحبه جهود السابقين، ويؤصل لمنهج بياني في التفسير قائم على التجديد والاتساع والكلية ليكون ثمرة– ولو مبدئية غير مكتملة النضوج– لهذا التاريخ الطويل الذي مر به التفسير البياني منذ بذرته الأولى التي زرعها أفصح خلق الله محمد صلى الله عليه وسلم.

المصادر والمراجع:

1_ أحمد الهاشمي:تع:سليمان صالح، جواهر البلاغة،دار المعرفة،بيروت،ط2 ،2007

2_ أمين الخولي :التفسير معالم حياته، منهجه اليوم ،دار الكتاب اللبناني،ط1982،1

3– ابن جرير الطبري :جامع البيان عن تأويل آي القرآن ،دار الفكر،بيروت،(د،ط) ، 1978،ج3

4_ أبي الفضل جمال الدين محمد مكرم ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1 (د،س) ،ج5

5_ بهجت عبد الغفور الحديثي: القصيدة الاسلامية و شعراؤها المعاصرون في العراق،المكتب الجامعي الحديث،الاسكندرية،ط1، 2003

6 _ جلال الدين محمد بن عبد الرحمان القزويني الخطيب:ضبط وشرح:عبد الرحمان البرقوقي ،التلخيص في علوم البلاغة،دار الفكر العربي،ط1 ، 1904

7_حفني محمد شرف:إعجاز القرآن البياني بين النظرية و التطبيق، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، مصر (د،ط) 1390، هـ،الكتاب الرابع

8_ سامي محمد هشام حريز : نظرات من الاعجاز البياني في القرآن الكريم نظريا و تطبيقا ،دار الشروق ،عمان ،ط1 ،2006

9_ عمرو بن بحر الجاحظ :تح:عبد السلام محمد هارون ،البيان والتبيين،مكتبة الخانجي للنشر،القاهرة، ط7 ،1998،الكتاب الثاني،ج1

10_فاضل صالح السامرائي:على طريق التفسير البياني جامعة الشارقة،الشارقة،(د،ط)،2002،ج1

11_ فهد بن عبد الرحمان بن سليمان الرومي : اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، ،مؤسسة الرسالة، بيروت ،ط3 ،1997 ،ج1

12_ فهد عبد الرحمان بن سليمان الرومي: بحوث في أصول التفسير ومناهجه، مكتبة التوبة، الرياض، ط4، 1419

13 – محمد رجب البيومي :خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم ، الشركة المصرية للطباعة و النشر،القاهرة، ط1 ،1971،السنة الثالثة،الكتاب الثاني والأربعون

14_ محمد رشيد رضا : تفسير المنار ،دار المعرفة ، بيروت ، ط2،(د،ت)، الجزء1

15_ محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير،الدار التونسية للنشر،تونس(د،ط)،1984،ج1

16__محمد عبده : تفسير القرآن الكريم – جزء عم – دار الكتب، الجزائر،(د،ط) ،(د،ت)

17 _ منصور كافي: مناهج المفسرين في العصر الحديث بين النظرية والتطبيق ،دار العلوم ،الجزائر،ط1 ، 2006